شدة الجوع[1]، وتمر عليه الشهور ولا يوقد في بيته نار[2].

فليس الفقر وضيق الرزق بدليل على إهانة الله لعبده، بل هو حكمة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فلا قبض الدنيا دليل على الإهانة، ولا بسطها دليل على الكرامة.

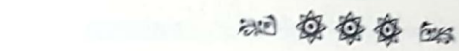

(١) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّا يَوْمَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ». ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا. أخرجه البخاري (٤١٠١).

(٢) كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلاَلِ، ثُمَّ الهِلاَلِ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ». أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢).

فَصْلٌ

وَأَعْظَمُ الْخَلْقِ غُرُورًا مَنِ اغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَعَاجَلَهَا، فَآثَرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ، وَرَضِيَ بِهَا مِنَ الْآخِرَةِ، حَتَّى يَقُولَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ: الدُّنْيَا نَقْدٌ، وَالْآخِرَةُ نَسِيئَةٌ، وَالنَّقْدُ أَحْسَنُ مِنَ النَّسِيئَةِ!.

الشرح:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، رغَّب في الآخرة لأنها هي المقر وهي الدائمة، ونهى عن الاغترار بزهرة الدنيا لأنها زائلة وفانية، ونهى عن الغَرور وهو الشيطان ووساوسه.

فإذا سلِم العبد من هاتين الفتنتين -فتنة الدنيا وفتنة الشيطان- سلِم في الآخرة، فهما أخطر فتنة على الإنسان، وكم هلك بسبب الاغترار بالدنيا من أمم، وكم هلك بسبب الشيطان من أمم؟ فخطرهما خطر عظيم.

وبعض الناس -أو كثير منهم- يقول: الدنيا حاضرة، وأما الآخرة فهي وعد آجل، فلا نترك الشيء الحاضر لشيء آجل!. وهذا لأنهم لا يؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلهذا قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، فالذين آثروا الدنيا على الآخرة هؤلاء ليس عندهم إيمان، وإنما هم -كما يقال الآن- ماديون، وأما الذين آثروا الآخرة على الدنيا، فهؤلاء هم المتقون، وهم أرباب العقول، وأهل البصيرة، ولكنهم قليل بالنسبة للصنف الأول.

Scanned by CamScanner

وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: ذَرَّةٌ مَنْقُودَةٌ، وَلَا دُرَّةٌ مَوْعُودَةٌ.

وَيَقُولُ آخَرُ مِنْهُمْ: لَذَّاتُ الدُّنْيَا مُتَيَقَّنَةٌ، وَلَذَّاتُ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا، وَلَا أَدَعُ الْيَقِينَ لِلشَّكِّ!

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ، وَالْبَهَائِمُ الْعُجْمُ أَعْقَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضَرَّةَ شَيْءٍ لَمْ تُقْدِمْ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ، وَهَؤُلَاءِ يُقْدِمُ أَحَدُهُمْ عَلَى مَا فِيهِ عَطَبُهُ، وَهُوَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ. فَهَذَا الضَّرْبُ إِنْ آمَنَ أَحَدُهُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِقَائِهِ وَالْجَزَاءِ، فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ حَسْرَةً؛ لِأَنَّهُ أَقْدَمَ عَلَى عِلْمٍ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَبْعَدُ لَهُ.

وَقَوْلُ هَذَا الْقَائِلِ: النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ.

فَجَوَابُهُ: أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى النَّقْدُ وَالنَّسِيئَةُ فَالنَّقْدُ خَيْرٌ، وَإِنْ تَفَاوَتَا وَكَانَتِ النَّسِيئَةُ أَكْثَرَ وَأَفْضَلَ فَهِيَ خَيْرٌ، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِ الْآخِرَةِ؟! كَمَا فِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ»(١).

فَإِيثَارُ هَذَا النَّقْدِ عَلَى هَذِهِ النَّسِيئَةِ مِنْ أَعْظَمِ الْغَبْنِ وَأَقْبَحِ الْجَهْلِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا نِسْبَةَ الدُّنْيَا بِمَجْمُوعِهَا إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَا مِقْدَارُ عُمُرِ الْإِنْسَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ؟ فَأَيُّهَا أَوْلَى بِالْعَاقِلِ: إِيثَارُ الْعَاجِلِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الْيَسِيرَةِ، وَحِرْمَانُ الْخَيْرِ الدَّائِمِ فِي الْآخِرَةِ، أَمْ تَرْكُ شَيْءٍ حَقِيرٍ صَغِيرٍ مُنْقَطِعٍ عَنْ قُرْبٍ؛ لِيَأْخُذَ مَا لَا قِيمَةَ لَهُ، وَلَا خَطَرَ لَهُ، وَلَا نِهَايَةَ لِعَدَدِهِ، وَلَا غَايَةَ لِأَمَدِهِ؟

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وأحمد (٤/ ٢٢٩)، والترمذي (٢٣٢٢).

وَأَمَّا قَوْلُ الْآخَرِ: لَا أَتْرُكُ مُتَيَقَّنًا لِمَشْكُوكٍ فِيهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى شَكٍّ مِنْ وَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، أَوْ تَكُونَ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الْيَقِينِ فَمَا تَرَكْتَ إِلَّا ذَرَّةً عَاجِلَةً مُنْقَطِعَةً فَانِيَةً عَنْ قُرْبٍ، لِأَمْرٍ مُتَيَقَّنٍ لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ.

وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَكٍّ فَرَاجِعْ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى الدَّالَّةَ عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْهُ. وَتَجَرَّدْ وَقُمْ لِلَّهِ نَاظِرًا أَوْ مُنَاظِرًا، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَنَّ خَالِقَ هَذَا الْعَالَمِ وَرَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَتَعَالَى وَيَتَقَدَّسُ وَيَتَنَزَّهُ عَنْ خِلَافِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَنْهُ. وَمَنْ نَسَبَهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ شَتَمَهُ وَكَذَّبَهُ، وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ؛ إِذْ مِنَ الْمُحَالِ الْمُمْتَنِعِ عِنْدَ كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ سَلِيمَةٍ، أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ الْحَقُّ عَاجِزًا أَوْ جَاهِلًا، لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَا يَسْمَعُ، وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَأْمُرُ وَلَا يَنْهَى، وَلَا يُثِيبُ وَلَا يُعَاقِبُ، وَلَا يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُرْسِلُ رُسُلَهُ إِلَى أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ وَنَوَاحِيهَا، وَلَا يَعْتَنِي بِأَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ سُدًى، وَيُخَلِّيهِمْ هَمَلًا.

وَهَذَا يَقْدَحُ فِي مُلْكِ آحَادِ مُلُوكِ الْبَشَرِ وَلَا يَلِيقُ بِهِ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نِسْبَةُ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ إِلَيْهِ؟!

الشرح:

هذا من عدم إيمانهم، يقولون: (ذَرَّةٌ مَنْقُودَةٌ، وَلَا دُرَّةٌ مَوْعُودَةٌ)، ويعنون بذلك الآخرة، فالآخرة بزعمهم وعد مؤجل، وأما الدنيا فهي حاضرة،

Scanned by CamScanner

ويقولون: فلا نترك الحاضرة. والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [١٦، ١٧]، فلا يؤثر الآخرة على الدنيا إلا مؤمن، ولا يؤثر الدنيا على الآخرة إلا كافر أو منافق.

وقوله: (**لَذَّاتُ الدُّنْيَا مُتَيَقَّنَةٌ، وَلَذَّاتُ الْآخِرَةِ مَشْكُوكٌ فِيهَا**)، بل بالعكس، فإن لذَّات الآخرة هي المتيقنة؛ لأن الله وعد بها، ووعد الله حق، وأما لذَّات الدنيا فهي متاع: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، لكن المؤمن يعتبر لذَّات الدنيا دليلًا على الآخرة، فالذي أعطى هذا الخير في الدنيا، وعجل هذه الأشياء في الدنيا، قادر على أن يجعل أكثر منها وأعظم منها في الآخرة، فيستدل بها لا أن يأخذها بدلًا عن الآخرة.

وقوله: (**فَإِنَّ الْبَهِيمَةَ إِذَا خَافَتْ مَضَرَّةَ شَيْءٍ لَمْ تُقْدِمْ عَلَيْهِ وَلَوْ ضُرِبَتْ**)، البهائم تتجنب الخطر فلا تقدم عليه، وهي بهائم لا عقل لها، بينما كثير من بني آدم يقدمون على الخطر والضرر، وينظرون إلى الدنيا بلذة عاجلة، ولا يفكرون في العقوبة الآجلة.

وقولهم: (**النَّقْدُ خَيْرٌ مِنَ النَّسِيئَةِ**) يعني: من المؤجل، وهذا ليس على إطلاقه، إذا تساوى النقد والمؤجل فلا شك أن النقد أحسن، وأما إذا كان المؤجل خير من العاجل فلا شك أن العقلاء يطلبون الخير، فلا يأخذون شيئًا عاجلًا قليلًا ويتركون آجلًا أكثر وأحسن وأبقى، كما أن الناس الآن يؤثرون بيع المؤجل على بيع النقد إذا كان المؤجل فيه زيادة، مما يدل على أن المؤجل إذا كان أحسن وأكثر فهو أولى عندهم.

وقوله: (**وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَنَفَسٍ وَاحِدٍ مِنْ أَنْفَاسِ**

الْآخِرَةِ)، الدنيا بالنسبة للآخرة لا شيء، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، متاع قليل، وضرب لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا كالذي يدخل إصبعه في البحر، هل ينقص البحر من شيء؟ لا ينقص البحر ولا يخرج بشيء من البحر إلا بلل يسير.

هذا مثل الدنيا والآخرة، الآخرة كالبحر، والدنيا مثل البلل الذي يعلق بالإصبع إذا غمس في البحر.

فإذا كانت الدنيا كلها من أولها إلى آخرها بالنسبة للآخرة قليل، فكيف بعمر الإنسان وهو جزء من الدنيا؟! لا يساوي شيئًا.

فعلى الإنسان أن ينظر إلى مصيره ومثواه الذي لا خروج له منه، ولا ينظر إلى عاجل أمره الذي هو مؤقت وسريع الزوال، فما عمره في هذه الدنيا إلا يسير من يسير.

Scanned by CamScanner

وَإِذَا تَأَمَّلَ الْإِنْسَانُ حَالَهُ مِنْ مَبْدَأِ كَوْنِهِ نُطْفَةً إِلَى حِينِ كَمَالِهِ وَاسْتِوَائِهِ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ مَنْ عُنِيَ بِهِ هَذِهِ الْعِنَايَةَ، وَنَقَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ، وَصَرَّفَهُ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُهْمِلَهُ وَيَتْرُكَهُ سُدًى، لَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْهَاهُ، وَلَا يُعَرِّفُهُ بِحُقُوقِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يُثِيبُهُ وَلَا يُعَاقِبُهُ.

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْعَبْدُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَكَانَ كُلُّ مَا يُبْصِرُهُ وَمَا لَا يُبْصِرُهُ دَلِيلًا لَهُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ. وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ «أَيْمَانِ الْقُرْآنِ»[1] عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠]، وَذَكَرْنَا طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ دَلِيلُ نَفْسِهِ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ كَمَالِهِ.

فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَغْرُورٌ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ: تَقْدِيرِ تَصْدِيقِهِ وَيَقِينِهِ، وَتَقْدِيرِ تَكْذِيبِهِ وَشَكِّهِ.

الشرح:

إذا تأمل الإنسان عناية الله بهذا الآدمي من حين كان نطفة في بطن أمه إلى أن يخرج إلى الدنيا، وسخَّر له من يعتني به وهو صغير، ثم لما كبر وأدرك أمره الله جَلَّ وَعَلَا ونهاه، وبين له الخير والشر، كل ذلك مما يدل على أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لطيف بعباده، لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم سُدى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ

---

١) يُنظر: التبيان في أقسام القرآن (ص١٧٥).

عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، ثم قال: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

فالذي قدر على بداية الإنسان، وتكوينه، وإنشائه، ورزقه، ودرجه في الحياة، قادر من باب أولى على أن يعيده، ويبعثه، ويجازيه على أعماله في هذه الدنيا. ما خلق الله هذا الخلق لأجل أن يفنى ويزول، بل خلقه لحكمة، وخلقه لغاية ونتيجة لا بد منها، ونتيجة الدنيا هي: الآخرة، كل ما يعمل في الدنيا من خير أو شر فجزاؤه في الآخرة، لا يترك الناس بدون جزاء، فيُجازى المحسن على إحسانه، ويجازى المسيء على إساءته ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قوله: **(وَقَدْ ذَكَرْنَا وَجْهَ الِاسْتِدْلَالِ بِذَلِكَ فِي كِتَابِ إِيمَانِ الْقُرْآنِ)**، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب اسمه (أقسام القرآن) أو (أيمان القرآن)، ذكر فيه الآيات التي أقسم الله بها، وفسرها وبينها، وهو كتاب نفيس.

وقوله: **(فَقَدْ بَانَ أَنَّ الْمُضَيِّعَ مَغْرُورٌ)**، فإن كان يؤمن بالله واليوم الآخر وترك العمل وآثر الحياة الدنيا، فهذا دليل على عدم عقله، وخلل فكره؛ إذ كيف يؤمن بشيء ويتركه؟! وإن كان لا يؤمن فالخسارة أشد وأنكى.

Scanned by CamScanner

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ بِالْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيَتَخَلَّفُ الْعَمَلُ؟ وَهَلْ فِي الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ غَدًا إِلَى بَيْنِ يَدَيْ بَعْضِ الْمُلُوكِ لِيُعَاقِبَهُ أَشَدَّ عُقُوبَةٍ، أَوْ يُكْرِمَهُ أَتَمَّ كَرَامَةٍ، وَيَبِيتُ سَاهِيًا غَافِلًا، لَا يَتَذَكَّرُ مَوْقِفَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَلَا يَسْتَعِدُّ لَهُ، وَلَا يَأْخُذُ لَهُ أُهْبَتَهُ؟

قِيلَ: هَذَا -لَعَمْرُ اللَّهِ- سُؤَالٌ صَحِيحٌ وَارِدٌ عَلَى أَكْثَرِ هَذَا الْخَلْقِ، وَاجْتِمَاعُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ.

وَهَذَا التَّخَلُّفُ لَهُ عِدَّةُ أَسْبَابٍ:

أَحَدُهَا: ضَعْفُ الْعِلْمِ، وَنُقْصَانُ الْيَقِينِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَفَاوَتُ، فَقَوْلُهُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَقْوَالِ وَأَبْطَلِهَا.

وَقَدْ سَأَلَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى عِيَانًا بَعْدَ عِلْمِهِ بِقُدْرَةِ الرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ؛ لِيَزْدَادَ طُمَأْنِينَةً، وَيَصِيرَ الْمَعْلُومُ غَيْبًا شَهَادَةً.

وَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(١).

فَإِذَا اجْتَمَعَ إِلَى ضَعْفِ الْعِلْمِ عَدَمُ اسْتِحْضَارِهِ، وَغَيْبَتُهُ عَنِ الْقَلْبِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَوْقَاتِهِ أَوْ أَكْثَرِهَا؛ لِاشْتِغَالِهِ بِمَا يُضَادُّهُ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ تَقَاضِي الطَّبْعِ، وَغَلَبَاتُ الْهَوَى، وَاسْتِيلَاءُ الشَّهْوَةِ، وَتَسْوِيلُ النَّفْسِ، وَغُرُورُ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِبْطَاءُ الْوَعْدِ، وَطُولُ الْأَمَلِ، وَرَقْدَةُ الْغَفْلَةِ، وَحُبُّ الْعَاجِلَةِ، وَرُخَصُ التَّأْوِيلِ، وَإِلْفُ الْعَوَائِدِ؛ فَهُنَاكَ لَا يُمْسِكُ الْإِيمَانَ إِلَّا الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وابن حبان (١٤/ ٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٥١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تَزُولَا.

وَلِهَذَا السَّبَبِ يَتَفَاوَتُ النَّاسُ فِي الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْقَلْبِ.

وَجِمَاعُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ الْبَصِيرَةِ وَالصَّبْرِ، وَلِهَذَا مَدَحَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً فِي الدِّينِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

الشرح:

يقول -على التقدير الأول-: إذا كان الذي آثر الدنيا على الآخرة يؤمن بوعد الله، فكيف يتركه؟ كيف يترك الآجل ويأخذ العاجل مع أنه يؤمن بوعد الله؟

قال: نعم، هو يؤمن، لكن هناك عوائق، منها: فتنة الدنيا، ووساوس الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وضعف العلم؛ كلها تحصل عند الإنسان ولو كان مؤمنًا، فيؤثر العاجل على الآجل وإن كان عنده إيمان بالآجل.

Scanned by CamScanner

فَصْلٌ

فَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ، وَأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ إِنْ حَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَسَاقَ إِلَيْهِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِنْ دَعَا إِلَى الْبِطَالَةِ وَالِانْهِمَاكِ فِي الْمَعَاصِي، فَهُوَ غُرُورٌ.

وَحُسْنُ الظَّنِّ هُوَ الرَّجَاءُ، فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ حَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ، وَمَنْ كَانَتْ بِطَالَتُهُ رَجَاءً، وَرَجَاؤُهُ بِطَالَةً وَتَفْرِيطًا، فَهُوَ الْمَغْرُورُ.

الشرح:

قوله: (**وَقَدْ تَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ حُسْنِ الظَّنِّ وَالْغُرُورِ**)، حسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا يكون مع عمل الأسباب، لا أن يحسن الظن فقط ويترك الأسباب، هذا هو الظن المحمود: أن تظن بربك خيرًا، وتعمل الأعمال الصالحة التي تنال بها رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، أما الذي يحسن الظن بالله ولا يعمل، ويبارز الله بالمعاصي والمخالفات، فهذا ليس من حسن الظن وإنما من الغرور، ففرق بين الغرور وحسن الظن.

وقوله: (**فَمَنْ كَانَ رَجَاؤُهُ حَادِيًا لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ، زَاجِرًا لَهُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَهُوَ رَجَاءٌ صَحِيحٌ**)، هذا ظنه صحيح ومحمود، أما الذي يعمل ما يشاء من المعاصي، ويقول: الله غفور رحيم. ولا يتوب ولا يترك المعاصي، ولا يعمل الطاعات، فهذا غرور بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكما أنه غفور رحيم، فهو شديد العقاب: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٣]، فلا تأخذ جانبًا وتترك الجانب الآخر، أتأخذ المغفرة والرحمة، وتترك شدة العقاب؟! تأخذ هذا وهذا، فحسن الظن لا يقنطك من رحمة الله، والخوف من العقاب لا يتركك تعمل المعاصي وتتساهل فيها.

Scanned by CamScanner

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ يُؤَمِّلُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ مِنْ مُغْلِهَا مَا يَنْفَعُهُ فَأَهْمَلَهَا، وَلَمْ يَبْذُرْهَا وَلَمْ يَحْرُثْهَا، وَحَسُنَ ظَنُّهُ بِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ مُغْلِهَا مَا يَأْتِي مَنْ حَرَثَ وَبَذَرَ وَسَقَى وَتَعَاهَدَ الْأَرْضَ، لَعَدَّهُ النَّاسُ مِنْ أَسْفَهِ السُّفَهَاءِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ حَسُنَ ظَنُّهُ وَقَوِيَ رَجَاؤُهُ بِأَنْ يَجِيئَهُ وَلَدٌ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ، أَوْ يَصِيرَ أَعْلَمَ أَهْلِ زَمَانِهِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ لِلْعِلْمِ، وَحِرْصٍ تَامٍّ عَلَيْهِ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

فَكَذَلِكَ مَنْ حَسَّنَ ظَنَّهُ وَقَوَّيَ رَجَاءَهُ فِي الْفَوْزِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَا وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ وَلَا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢١٨].

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ رَجَاءَهُمْ إِتْيَانَهُمْ بِهَذِهِ الطَّاعَاتِ! وَقَالَ الْمُغْتَرُّونَ: إِنَّ الْمُفَرِّطِينَ الْمُضَيِّعِينَ لِحُقُوقِ اللَّهِ، الْمُعَطِّلِينَ لِأَوَامِرِهِ، الْبَاغِينَ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُتَجَرِّئِينَ عَلَى مَحَارِمِهِ؛ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ.

وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ الرَّجَاءَ وَحُسْنَ الظَّنِّ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِتْيَانِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَةُ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ وَثَوَابِهِ وَكَرَامَتِهِ، فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا، ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا مُوصِلَةً إِلَى مَا يَنْفَعُهُ، وَيَصْرِفَ مَا يُعَارِضُهَا وَيُبْطِلَ أَثَرَهَا.

الشرح:

هذه أمثلة محسوسة: لو كان لرجل أرض زراعية، فتركها، ولم يصلحها،

ولم يبذر فيها بذرًا، ولم يغرس فيها غرسًا، وقال: هذه الأرض سوف تنبت تمرًا وحبوبًا وفواكه. وهو ما عمل فيها شيء، ماذا يعده الناس؟ لا شك أنهم يعدونه مجنونًا.

فمن أراد أن تنبت أرضه وتثمر فلابد أن يعمل الأسباب؛ فيصلحها، ويغرسها، ويرويها، ويواليها، ولا يتركها بدون عمل، وكذلك الإنسان في الحياة، حياته كأرضه، إذا أحسن الظن بالله وأخذ بالأسباب، فترك المعاصي، وعمل الطاعات، أثمرت رضا الله والجنة، أما أن يترك الأعمال الصالحات، ويقيم على المعاصي، ويقول: أنا أحسن الظن بالله، فهذا جنون وحمق.

كذلك من الأمثلة المحسوسة: الذي يرجو الذرية ولا يتزوج، كيف تأتيه الذرية وهو لم يتزوج؟! لأن الزواج سبب للذرية، فإذا أعرض عن الزواج وقال: إن كان الله قسم لي ذرية فستأتيني لا محالة. فهو أحمق، لا بد له أن يتزوج ويعمل السبب حتى تأتيه الذرية؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ربط الأشياء بأسبابها.

فهذا مثل الآخرة، فلا يحصل العبد في الآخرة على الدرجات العلا والنعيم المقيم إلا بالعمل الصالح والإقلاع عن المعاصي، والتوبة إلى الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أن حسن الظن لا يكفي، بل لا بد معه من العمل؛ لأن المؤمنين ما صاروا يرجون رحمة الله وتركوا الهجرة، وتركوا الجهاد، وتركوا العمل الصالح، بل لما رجوا الله لم يقتصروا على الرجاء، وإنما قدموا من الأعمال ما يحقق لهم رجاءهم.

Scanned by CamScanner

أما المفرطون المضيعون لحقوق الله فيعملون بعكس الآية، فيزعمون أنهم يرجون رحمة الله، ولا يمنعهم ذلك من البغي، والعدوان، والكفر، وفعل الفواحش! وهذا غرور والعياذ بالله. لو كانوا يرجون رحمة الله لتركوا ما نهى الله عنه، وأتوا بأوامره تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالرجاء له أسباب، والعقوبة لها أسباب، فإذا كنت ترجو فاعمل الأسباب الصالحة، وتجنب الأسباب السيئة، وإلا مجرد الرجاء هذا لا يفيدك شيئًا. ولهذا رد الفقهاء والعلماء على المرجئة الذين يقولون: إن إيمان العبد يكفي ولو لم يعمل؛ لأن الأعمال ليست ضرورية، وليست سببًا في دخول الجنة! يا سبحان الله! الإيمان بدون عمل ليس إيمانًا، لا بد أن يكون الإيمان مصحوبًا بالعمل وإلا لم يكن إيمانًا، فلا إيمان بدون عمل، ولا عمل بدون إيمان، فهما متلازمان.

وقوله: **(فَيَأْتِي الْعَبْدُ بِهَا ثُمَّ يُحْسِنُ ظَنَّهُ بِرَبِّهِ، وَيَرْجُوهُ أَنْ لَا يَكِلَهُ إِلَيْهَا)** أي: يجمع بين الأسباب والتوكل على الله، وهذا هو الطريق الصحيح، أما الاقتصار على التوكل وترك الأسباب هذا غلط، كذلك العكس وهو الاعتماد على الأسباب وترك التوكل على الله هذا غلط أيضًا، فلا بد من الجمع بين التوكل على الله وفعل الأسباب.

فَصْلٌ

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ أُمُورًا:

أَحَدُهَا: مَحَبَّةُ مَا يَرْجُوهُ.

الثَّانِي: خَوْفُهُ مِنْ فَوَاتِهِ.

الثَّالِثُ: سَعْيُهُ فِي تَحْصِيلِهِ بِحَسْبِ الْإِمْكَانِ.

وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ، وَالرَّجَاءُ شَيْءٌ وَالْأَمَانِيُّ شَيْءٌ آخَرُ، فَكُلُّ رَاجٍ خَائِفٌ، وَالسَّائِرُ عَلَى الطَّرِيقِ إِذَا خَافَ أَسْرَعَ السَّيْرَ مَخَافَةَ الْفَوَاتِ.

الشرح:

من رجا شيئًا لا بد له من ثلاثة أمور:

الأول: أن يحب هذا الشيء، فإذا كان لا يحبه فإنه لا يسعى في تحصيله.

الثاني: أن يخاف من فواته، فلذلك يبادر بطلبه.

الثالث: أن يسعى في تحصيله.

فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة مع الرجاء فهو على الطريق الصحيح، **(وَأَمَّا رَجَاءٌ لَا يُقَارِنُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، فَهُوَ مِنْ بَابِ الْأَمَانِيِّ)**، والأماني لا قيمة لها، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»** يعني: حاسب نفسه، **«وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»**[1]. أي: يريد الجنة، ولا يعمل أعمالًا صالحة، ولا يترك الأعمال السيئة.

(١) تقدم تخريجه (ص ٩١).

Scanned by CamScanner

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»(١).

وَهُوَ سُبْحَانَهُ كَمَا جَعَلَ الرَّجَاءَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَذَلِكَ جَعَلَ الْخَوْفَ لِأَهْلِ الْأَعْمَالِ، فَعُلِمَ أَنَّ الرَّجَاءَ وَالْخَوْفَ النَّافِعَ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الْعَمَلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧ - ٦١].

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقُلْتُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ؟ فَقَالَ: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ»(٢).

وَقَدْ رُوِيَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا(٣).

الشرح:

الذي يرجو الجنة يخاف من فواتها، ولذلك يبادر بالأعمال الصالحة والموصلة إليها، ولا يتكاسل ويقول: أنا أريد الجنة. وهو لا يعمل شيئًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وأحمد (٦/١٥٩)، والحاكم (٢/٤٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/٣٣)، والطبراني في الأوسط (٤/١٩٨).

وأهل الإيمان يجمعون بين الخوف والرجاء، فيخافون الله ويرجونه، كما ذكر الله عن أنبيائه: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٦]، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]، رغبًا: هذا الرجاء، ورهبًا: هذا الخوف، هؤلاء هم أهل الإيمان الذين يجمعون بين الخوف والرجاء.

أما الذي يأخذ الرجاء فقط فهذا مرجئ، والذي يأخذ الخوف فقط فهذا من الخوارج.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الطاعات وهم يخافون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ لا يعتمدون على أعمالهم، بل يخافون من الله جَلَّ وَعَلَا، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء، ولا يعطلون الأعمال، بل يعملون هذه الأعمال الجليلة.

وقد سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذه الآية، فقالت: «أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَزْنُونَ وَيَسْرِقُونَ؟»، فقال لها: «**لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَخَافُونَ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُمْ**»، أي: يعملون الصالحات، ويخافون أن تُرد عليهم أعمالهم ولا تُقبل.

Scanned by CamScanner

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَصَفَ أَهْلَ السَّعَادَةِ بِالْإِحْسَانِ مَعَ الْخَوْفِ، وَوَصَفَ الْأَشْقِيَاءَ بِالْإِسَاءَةِ مَعَ الْأَمْنِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجَدَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ، وَنَحْنُ جَمِيعًا بَيْنَ التَّقْصِيرِ -بَلِ التَّفْرِيطِ- وَالْأَمْنِ.

فَهَذَا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «وَدِدْتُ أَنِّي شَعْرَةٌ فِي جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ»، ذَكَرَهُ أَحْمَدُ عَنْهُ(١).

وَذَكَرَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْسِكُ بِلِسَانِهِ وَيَقُولُ: «هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ»(٢).

وَكَانَ يَبْكِي كَثِيرًا، وَيَقُولُ: «ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»(٣).

وَكَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ عُودٌ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ(٤).

وَأُتِيَ بِطَائِرٍ فَقَلَّبَهُ ثُمَّ قَالَ: «مَا صِدْتَ مِنْ صَيْدٍ، وَلَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرَةٍ، إِلَّا بِمَا ضَيَّعْتَ مِنَ التَّسْبِيحِ»(٥).

وَلَمَّا احْتَضَرَ قَالَ لِعَائِشَةَ: «يَا بُنَيَّةُ، إِنِّي أَصَبْتُ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْعَبَاءَةَ وَهَذِهِ الْحِلَابَ وَهَذَا الْعَبْدَ، فَأَرْسِلِي بِهِ إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ»(٦).

وَقَالَ: «وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ، تُؤْكَلُ وَتُعْضَدُ»(٧).

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٩).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦١).
(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٥٥٨).
(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢٠٧/١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٢٥/٢)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٩١/١).
(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٦).
(٦) أخرجه أحمد في الزهد (٥٦٧).
(٧) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٠).

وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ: «لَيْتَنِي خُضْرَةٌ تَأْكُلُنِي الدَّوَابُّ»(١).

الشرح:

قوله: (وَمَنْ تَأَمَّلَ أَحْوَالَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَجَدَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَمَلِ مَعَ غَايَةِ الْخَوْفِ) الصحابة كانوا على هذا المنوال، يخافون الله جَلَّ وَعَلَا، ويرجون رحمته، فلذلك قاموا بالهجرة، والجهاد، وإنفاق الأموال، وقاموا بالأعمال الصالحة الشاقة، ولم يقتصروا على صحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: نحن أفضل الأمة، ويتركون الأعمال، بل هم أسبق الناس إلى الأعمال الصالحة، وأشد الناس خوفًا من الله، وأكثر الناس رجاءً لرحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع صحبته لرسول الله وفضله، وسابقته في الإسلام، وأعماله الجليلة، يقول هذه المقالة من شدة الخوف، لم يعتمد على أعماله ويقول: أنا فعلت كذا وعملت كذا، بل يخاف الله عَزَّوَجَلَّ ويرجو رحمته.

ومع أعماله الجليلة وفضله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عند الموت أشد خوفًا، وبادر بأداء ما عنده من بيت المال؛ خشية أن يموت وعنده شيء من أموال المسلمين، وهذا من شدة خوفه من الله جَلَّ وَعَلَا.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٨٢).

Scanned by CamScanner

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور:٧]، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوهُ(١).

وَقَالَ لِابْنِهِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ: «وَيْحَكَ، ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ عَسَاهُ أَنْ يَرْحَمَنِي»، ثُمَّ قَالَ: «وَيْلُ أُمِّي، إِنْ لَمْ يَغْفِرْ لِي» ثَلَاثًا، ثُمَّ قُضِيَ(٢).

وَكَانَ يَمُرُّ بِالْآيَةِ فِي وِرْدِهِ بِاللَّيْلِ فَتُخِيفُهُ، فَيَبْقَى فِي الْبَيْتِ أَيَّامًا يُعَادُ، يَحْسَبُونَهُ مَرِيضًا(٣).

وَكَانَ فِي وَجْهِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ(٤).

وَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَصَّرَ اللَّهُ بِكَ الْأَمْصَارَ، وَفَتَحَ بِكَ الْفُتُوحَ، وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَقَالَ: «وَدِدْتُ أَنِّي أَنْجُو لَا أَجْرَ وَلَا وِزْرَ»(٥).

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ يَبْكِي حَتَّى يَبُلَّ

(١) لم أقف عليه مسندًا.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (ص٩٤): عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: سَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾، فَجَعَلَ يَبْكِي حَتَّى اشْتَدَّ بُكَاؤُهُ، ثُمَّ خَرَّ يَضْطَرِبُ. فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «دَعُونِي، فَإِنِّي سَمِعْتُ قَسَمَ حَقٍّ مِنْ رَبِّي». وفي هذه الرواية نكارة، فلم يثبت عن أحد من الصحابة الصعق والسقوط والغشي عند سماع القرآن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في منهاج السنة النبوية (٥/٣٥٦): «والسابقون الأولون هم أفضل، وما أصاب أحدًا منهم هذا الفناء، ولا صعق ولا موت عند سماع القرآن، وإنما نجد هذا الصعق في التابعين».

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (٤٤، ٤٦)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (ص٥٥).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٢٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٦٣٦).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٧).

لِحْيَتَهُ(١)، وَقَالَ: «لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيِّهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيِّهِمَا أَصِيرُ»(٢).

وَهَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبُكَاؤُهُ وَخَوْفُهُ، وَكَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ مِنِ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَى. قَالَ: «فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ مُدْبِرَةً، وَالْآخِرَةَ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»(٣).

وَهَذَا أَبُو الدَّرْدَاءِ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لِي: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَدْ عَلِمْتَ، فَكَيْفَ عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟»(٤).

وَكَانَ يَقُولُ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَنْتُمْ لَاقُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَمَا أَكَلْتُمْ طَعَامًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا شَرِبْتُمْ شَرَابًا عَلَى شَهْوَةٍ، وَلَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا تَسْتَظِلُّونَ فِيهِ، وَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَضْرِبُونَ صُدُورَكُمْ، وَتَبْكُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ ثُمَّ تُؤْكَلُ»(٥).

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ أَسْفَلُ عَيْنَيْهِ مِثْلُ الشِّرَاكِ الْبَالِي مِنَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وأحمد (١/٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٦٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٦٩٢)، وأبو داود في الزهد (١١٣)، وابن المبارك في الزهد (٢٥٥)، وعلقه البخاري جازمًا به في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله قبل حديث رقم (٦٤١٧).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (٧٣٠).

Scanned by CamScanner

الدُّمُوعِ[١].

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَقُولُ: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ، وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُخْلَقْ»[٢].

وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّفَقَةُ، فَقَالَ: «عِنْدَنَا عَنْزٌ نَحْلِبُهَا، وَأَحْمِرَةٌ نَنْقُلُ عَلَيْهَا، وَمُحَرَّرٌ يَخْدِمُنَا، وَفَضْلُ عَبَاءَةٍ، وَإِنِّي أَخَافُ الْحِسَابَ فِيهَا»[٣].

وَقَرَأَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ لَيْلَةً سُورَةَ الْجَاثِيَةِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية:٢١] جَعَلَ يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ[٤].

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَامِرُ بْنُ الْجَرَّاحِ: «وَدِدْتُ أَنِّي كَبْشٌ فَذَبَحَنِي أَهْلِي، وَأَكَلُوا لَحْمِي، وَحَسُوا مَرَقِي»[٥].

وَهَذَا بَابٌ يَطُولُ تَتَبُّعُهُ.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: «بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على الزهد (٧٨٣).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٧).
(٣) أخرجه أحمد في الزهد (٧٨٦).
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١)، وأبو داود في الزهد (١٥٠).
(٥) أخرجه أحمد في الزهد (١٠٢٥).

وَمِيكَائِيلَ. وَيُذْكَرُ عَنِ الْحَسَنِ: «مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ»[١].

الشرح:

وهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال هذه المقالة عند الموت، وخوفه من الله عَزَّوَجَلَّ، مع ما له من الفضل والمكانة، والجهاد في سبيل الله، والهجرة، والسابقة في الإسلام، وما قال: أنا قدمت من الأعمال ما قدمت، ولا أخاف أن ألقى الله وأقف بين يديه بعد الممات.

وهذا عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فطنته يخاف على من بعده طول الأمل واتباع الهوى، ويوصيهم بهذه الوصية جليلة المعاني واضحة الألفاظ.

وهذه كلها نماذج من خوف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لم يُعجبوا بأنفسهم وأعمالهم، وإنما مع رجاء أعمالهم الجليلة يخافون من الله عَزَّوَجَلَّ.

فلا يأمن الإنسان ولو كانت أعماله جليلة، فكيف بالمقصر الذي أعماله قليلة، أو ليس عنده أعمال، ولا يخاف من الله عَزَّوَجَلَّ؟!

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه في مسألة خوف المؤمن، فقال: **(بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)**، يعني: يبطل عمله وهو لا يدري، وهذا خطر عظيم؛ لأنه إذا كان يدري يتجنب المحبطات، لكن المشكلة إذا صار لا يدري.

وهذا مما يؤكد على المؤمن أن يتعلم وأن يتفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبطات العمل كثيرة؛ أخطرها وأعظمها: الشرك الأصغر، فالشرك الأكبر

(١) صحيح البخاري (١/١٨) قبل حديث رقم (٤٨).

Scanned by CamScanner

يعرفه الناس ويتجنبه من هداه الله، لكن الشرك الأصغر الخفي هو أخوف ما يُخاف على المؤمن منه.

ولهذا خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، وقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، قالوا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1]. يعني: أنه يرائي بأعماله، ويحب أن يمدحه الناس على أعماله، وأن يثنوا عليه، وعلى صدقته وعلى تبرعاته. فهذا ليس له أجر عند الله ويحبط عمله؛ لأنه ما عمل لوجه الله وإنما عمل للرياء.

وهذا قلَّ من يسلم منه، الشرك الأكبر يسلم منه المؤمن، لكن الشرك الأصغر قل من يسلم منه؛ لأنه خفي، ومن محبطات العمل؛ كمن يتصدق ويمن في صدقته: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، يعني: يعطي الفقير أو السائل أو المحتاج ثم يتمنن عليه، أو يؤذيه ويتطاول عليه ويحتقره، وهذا من مبطلات الأعمال، أو أن يمن بعمله على الله، ويزكي نفسه ويرى أنه رجل صالح، فهذا أيضًا يبطل العمل.

كذلك مما يبطل العمل أو يذهب بثوابه لا يبطله: الظلم، إذا ظلمت الناس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم فإنهم يقتصون يوم القيامة من أعمالك الصالحة، فيأخذون ثوابها مقابل مظالمهم؛ فأنت تتعب والثواب لغيرك.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا: الغيبة والنميمة التي يتساهل الناس فيها، فيُقتص من المغتاب يوم القيامة، وكذلك الحسد، «فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[1]، وكون الإنسان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ويتمنى زوال النعم عنهم، فهذا قد يؤدي إلى ارتكاب المعاصي.

فالذي منع اليهود من الإيمان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحسد، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وهم يعرفون أنه رسول الله، فالحسد منعهم من الإيمان وأبقاهم على الكفر، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه، وقبل ذلك الحسد حمل إبليس على أن يتكبر على آدم، فطرده الله وأبعده.

فهذه أمور يبطل بها العمل، أو تذهب بثوابه، فعلى الإنسان وهو يحرص على أن يعمل ويتقرب إلى الله أن يتجنب مبطلات الأعمال.

كذلك ينبغي للإنسان أن يعرض قوله على عمله، ويكون حريصًا على أن يصدق عمله قوله، فلا يأمر الناس بالخير والبر وهو لا يعمل بما يأمرهم به، فهذا أيضًا مذموم، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤].

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخافون على أنفسهم من النفاق، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

Scanned by CamScanner

يعرفه الناس ويتجنبه من هداه الله، لكن الشرك الأصغر الخفي هو أخوف ما يُخاف على المؤمن منه.

ولهذا خافه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه، وقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، قالوا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1]. يعني: أنه يراني بأعمالي، ويحب أن يمدحه الناس على أعماله، وأن يثنوا عليه، وعلى صدقته وعلى تبرعاته، فهذا ليس له أجر عند الله ويحبط عمله؛ لأنه ما عمل لوجه الله وإنما عمل للرياء.

وهذا قلَّ من يسلم منه، الشرك الأكبر يسلم منه المؤمن، لكن الشرك الأصغر قل من يسلم منه؛ لأنه خفي، ومن محبطات العمل؛ كمن يتصدق ويمن في صدقته: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، يعني: يعطي الفقير أو السائل أو المحتاج ثم يتمنن عليه، أو يؤذيه ويتطاول عليه ويحتقره، وهذا من مبطلات الأعمال، أو أن يمن بعمله على الله، ويزكي نفسه ويرى أنه رجل صالح، فهذا أيضًا يبطل العمل.

كذلك مما يبطل العمل أو يذهب ثوابه لا يبطله: الظلم، إذا ظلمت الناس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم فإنهم يقتصون يوم القيامة من أعمالك الصالحة، فيأخذون ثوابها مقابل مظالمهم؛ فأنت تتعب والثواب لغيرك.

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن ذلك أيضًا: الغيبة والنميمة التي يتساهل الناس فيها، فيُقتص من المغتاب يوم القيامة، وكذلك الحسد، «فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»[1]، وكون الإنسان يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ويتمنى زوال النعم عنهم، فهذا قد يؤدي إلى ارتكاب المعاصي.

فالذي منع اليهود من الإيمان برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الحسد، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩]، وهم يعرفون أنه رسول الله، فالحسد منعهم من الإيمان وأبقاهم على الكفر، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه، وقبل ذلك الحسد حمل إبليس على أن يتكبر على آدم، فطرده الله وأبعده.

فهذه أمور يبطل بها العمل، أو تذهب بثوابه، فعلى الإنسان وهو يحرص على أن يعمل ويتقرب إلى الله أن يتجنب مبطلات الأعمال.

كذلك ينبغي للإنسان أن يعرض قوله على عمله، ويكون حريصًا على أن يصدق عمله قوله، فلا يأمر الناس بالخير والبر وهو لا يعمل بما يأمرهم به، فهذا أيضًا مذموم، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤].

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخافون على أنفسهم من النفاق، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ،

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

Scanned by CamScanner

وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]. فكان أحدهم يخاف على نفسه من النفاق، أو أن يكون فيه خصلة من خصال المنافقين، وكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتهمون أنفسهم، ولا يدَّعون كمال الإيمان، كإيمان الملائكة، وإنما يخافون على إيمانهم من النقص، وإذا خاف الإنسان شيئًا حذر منه وتركه، أما إذا لم يخف وقع فيه، ولا يخاف النفاق إلا مؤمن، ولا يأمنه إلا منافق.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحُذَيْفَةَ: «أَنْشُدُكَ اللَّهَ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا[1].

فَسَمِعْتُ شَيْخَنَا رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: لَيْسَ مُرَادُهُ أَنِّي لَا أُبَرِّئُ غَيْرَكَ مِنَ النِّفَاقِ، بَلِ الْمُرَادُ: لَا أَفْتَحُ عَلَى نَفْسِي هَذَا الْبَابَ، فَكُلُّ مَنْ سَأَلَنِي هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُزَكِّيهِ.

قُلْتُ: وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي سَأَلَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[2]. وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ عُكَّاشَةَ وَحْدَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِمَّنْ عَدَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ لَوْ دَعَا لَهُ لَقَامَ آخَرُ وَآخَرُ وَانْفَتَحَ الْبَابُ، وَرُبَّمَا قَامَ مَنْ لَمْ يَسْتَحِقَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ، فَكَانَ الْإِمْسَاكُ أَوْلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح:

حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب سر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يفضي إليه بالأسرار ويخبره عن المنافقين.

وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثاني الخلفاء الراشدين، سأل حذيفة: هل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٨١)، وأبو بكر الخلال في السنة (٤/ ١١١) عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ: «مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ حُذَيْفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: بِاللَّهِ، مِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: لَا، وَلَنْ أُخْبِرَ بِهِ أَحَدًا بَعْدَكَ».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢١٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

Scanned by CamScanner

عذَّبني رسول الله من المنافقين؟ خاف على نفسه من النفاق، وهو عمر الفاروق، صاحب الفضل والسبق في الإسلام، فقال: (**لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا**)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس معناه أن حذيفة يتهم الصحابة كلهم، وأنه لا يزكي أحدًا منهم غير عمر، ولكن المعنى أنه لن يُخبر أحدًا غيره بسر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ**»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**». فأغلق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباب؛ لئلا يقوم من ليس أهلًا لأن يكون من السبعين، ولكن بحسن عبارة، ما قال له: لا تستحق، أو لست أهلاً لذلك؛ لئلاً يكسر خاطره، وإنما قال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»، فلم يخدشه، وإنما أتى بكلمة طيبت نفسه.

وليس المعنى أنه لن يكون من السبعين ألفًا إلا عكاشة، بل سيكون منهم غيره أيضًا، ولكن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخبرهم بذلك لئلا يحملهم على الاتكال، أو يخبر من ليس أهلًا لهذه المنزلة، فأغلق هذا الباب لأجل ذلك.

فَصْلٌ

فَلْنَرْجِعْ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ دَوَاءِ الدَّاءِ الَّذِي إِنِ اسْتَمَرَّ أَفْسَدَ دُنْيَا الْعَبْدِ وَآخِرَتَهُ.

فَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ تَضُرُّ وَلَا بُدَّ، وَأَنَّ ضَرَرَهَا فِي الْقَلْبِ كَضَرَرِ السُّمُومِ فِي الْأَبْدَانِ، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهَا فِي الضَّرَرِ، وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا وَسَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي؟.

فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ وَالْمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ، وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ، وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ؟ وَبُدِّلَ بِالْقُرْبِ بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى، وَبِالْإِيمَانِ كُفْرًا، وَبِمُوَالَاةِ الْوَلِيِّ الْحَمِيدِ أَعْظَمَ عَدَاوَةٍ وَمُشَاقَّةٍ، وَبِزَجَلِ التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّهْلِيلِ زَجَلَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالزُّورِ وَالْفُحْشِ، وَبِلِبَاسِ الْإِيمَانِ لِبَاسَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَانَ عَلَى اللَّهِ غَايَةَ الْهَوَانِ، وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ غَايَةَ السُّقُوطِ، وَحَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الرَّبِّ تَعَالَى فَأَهْوَاهُ، وَمَقَتَهُ أَكْبَرَ الْمَقْتِ فَأَرْدَاهُ، فَصَارَ قَوَّادًا لِكُلِّ فَاسِقٍ وَمُجْرِمٍ، رَضِيَ لِنَفْسِهِ بِالْقِيَادَةِ بَعْدَ تِلْكَ الْعِبَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ.

الشرح:

الداء هو: الذنوب، فما هو دواؤه؟.

Scanned by CamScanner

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الذنوب لا بد أن تضر، وضررها على قسمين:

الأول: ضرر القلوب، وهذا أشد؛ لأنها تؤثر في القلوب بالنفاق والقسوة والغفلة، وقد يكفر الإنسان بسببها، فيفسد قلبه نهائيًا بسبب الذنوب.

والثاني: ضرر في الأبدان والأموال، فما يقع في الأرض من مصيبة، ونقص في الأموال، ونقص في الأنفس، وانحباس الأمطار وقلة المياه، وفساد الثمار، إلا بسبب الذنوب والمعاصي، والدليل على ذلك أن الله أهلك الأمم السابقة بسبب الذنوب.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، وقال عَزَّوَجَلَّ في الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٩]، أي: بسبب نفسك.

قوله: (**فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ مِنَ الْجَنَّةِ**)، الذي أخرجهما ذنب واحد: لمَّا نهاهما الله عن الأكل من الشجرة أغواهم الشيطان فأكلا منها، فأخرجهما من الجنة، ثم تابا إلى الله فغفر الله لهما، ولكنه أخرجهما من الجنة بسبب هذا الذنب.

وقوله: (**وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ**)، كان إبليس مع الملائكة من العباد في السماء، فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حسده وامتنع من السجود، وعصى الله، فطرده الله ولعنه وأبعده وأهبطه إلى الأرض،

وجعل الذلة والصغار عليه بسبب أنه لم يمتثل أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (**فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ**) إلى آخره، هذه أوصاف إبليس، والسبب في ذلك معصيته لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، الملائكة امتثلت وسجدت، وهو أبى واستكبر وعصى، فأبعده الله وطرده من الجنة، فصار بهذه الصفات القبيحة والشنيعة، بل صار قوادًا يقود الناس إلى المعاصي.

وقوله: (**فَعِيَاذًا بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِكَ وَارْتِكَابِ نَهْيِكَ**)، وكم نخالف من أوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ فعلى الإنسان أن يفكر ويخشى على نفسه عاقبة مخالفة أوامر الله، وارتكاب ما نهى عنه جَلَّ وَعَلَا.

Scanned by CamScanner

وَمَا الَّذِي غَرَّقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ حَتَّى عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رَأْسِ الْجِبَالِ؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ حَتَّى أَلْقَتْهُمْ مَوْتَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٌ، وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، حَتَّى صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حَتَّى قَطَّعَتْ قُلُوبَهُمْ فِي أَجْوَافِهِمْ، وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ أَتْبَعَهُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيْرِهِمْ؟ وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ، فَلَمَّا صَارَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ نَارًا تَلَظَّى؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ نُقِلَتْ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ، فَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ لِلْحَرْقِ؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ، وَدَمَّرَهَا تَدْمِيرًا؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يس بِالصَّيْحَةِ حَتَّى خَمَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ، وَسَبَوُا الذُّرِّيَّةَ وَالنِّسَاءَ، وَأَحْرَقُوا الدِّيَارَ، وَنَهَبُوا الْأَمْوَالَ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَتَبَّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، مَرَّةً بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَخَرَابِ الْبِلَادِ، وَمَرَّةً بِجَوْرِ الْمُلُوكِ، وَمَرَّةً بِمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ؟ وَآخِرُ ذَلِكَ أَقْسَمَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].

الشرح:

قوله: (وَمَا الَّذِي غَرَّقَ أَهْلَ الْأَرْضِ كُلَّهُمْ)، هذا في قوم نوح.

وقوله: (وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ الْعَقِيمَ عَلَى قَوْمِ عَادٍ)، مع قوتهم وكبر أجسامهم: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فسلط الله عليهم ريحًا أهلكتهم، ودمرت منازلهم، وحملتهم إلى الجو ثم ردتهم على رؤوسهم فدقت أعناقهم؛ حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية، بسبب كفرهم، واستكبارهم، وعصيانهم أمر الله.

وقوله: (وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ)، يعني: الصاعقة، صاح فيهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فهلكوا جميعًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، صيحة واحدة ما هي بصيحات؛ لأنهم لا يتحملون، ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، لم يمتثلوا لأمر الله فعاقبهم أشنع عقوبة.

وقوله: (وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ) الذين كانوا يأتون الذكران ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم (حَتَّى سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ)، عاقبهم بسبب هذه المعصية بأن رفع ديارهم إلى الجو، ثم قلبها عليهم، وأتبعهم بحجارة من سجيل.

Scanned by CamScanner

وقوله: **(وَلِإِخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا)**، يعني: إخوانهم من اللوطية الذين يأتون هذه الجريمة لهم أمثالها، ولهذا قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣]، وما يحصل الآن في العالم من الأمراض المستعصية مثل المرض الذي يسمونه (فقد المناعة) هذا بسبب جريمة اللواط والزنا والعياذ بالله.

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ سَحَابَ الْعَذَابِ كَالظُّلَلِ)**، قوم شعيب أصحاب مدين عصوا نبيهم شعيبًا، فظللتهم سحابة ظنوا أن فيها مطرًا، فخرجوا إليها فأخذهم العذاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤، ٢٥]، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي الْبَحْرِ)**، كذلك فرعون وقومه الذين تكبروا على موسى، ومن معه من بني إسرائيل، أغرقهم الله في البحر، دخلوا فيه وهو يابس: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٧، ٧٨]، فأطبقه الله عليهم، ونجى موسى وقومه، بسبب أنهم عصوا نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصاروا مع فرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فماذا كانت عاقبته؟ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات:٢٤، ٢٥].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ)**، قارون أُعجب

بعطاء الله؛ وقد أعطاه الله من الكنوز الشيء الكثير، فنصحه قومه أن لا يتكبر وألا يغتر بهذه النعمة، وأن يعرف حق الله فيها، ولكنه جحد نعمة الله، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، يعني: إنما حصلته بقوتي وكسبي ومهارتي، وجحد أنه من الله جَلَّ وَعَلَا. وقيل: إن قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ يعني: أن الله علم أنه يستحق هذا، وقيل: يعني: إنما اكتسبته عن خبرة بالمكاسب، فلم ينسبه إلى ربه ويقول: هذا من فضل الله؛ فعاقبه الله جَلَّ وَعَلَا بهذه العقوبة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ)**، أهلك الله جَلَّ وَعَلَا قرونًا من بعد نوح لا يعلمهم إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾، الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذكر لنا بعض الأمم، ولكن كثيرًا من الأمم قبلنا لم يذكرهم، أهلكهم بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٧].

وقوله: **(وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ قَوْمَ صَاحِبِ يس بِالصَّيْحَةِ)**، قيل: هم أهل أنطاكية على البحر، وقيل: غيرها، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٣]، ينذرونهم، فأبوا واستكبروا وقالوا: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥]، كذبوا الرسل، فخرج منهم رجل ينصحهم: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، ولكنهم أبوا، فماذا كان من عاقبتهم؟ ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ

Scanned by CamScanner

ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾، يعني: ما جاءهم جنود، وإنما أهلكهم الله بالصيحة، والله قادر على كل شيء.

قوله: **(وَمَا الَّذِي بَعَثَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمًا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ)**، سلط الله المجوس على بني إسرائيل، مع أن بني إسرائيل أهل كتاب وأهل علم، والمجوس عبدة النار كفرة ملاحدة، ولكن الله قد يسلط الكافر على المؤمن بسبب ذنوب المؤمن، فسلط الله المجوس عبدة النيران على بني إسرائيل أهل الكتاب وأهل العلم؛ لأنهم عصوا الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: **(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَأَهْلَكُوا مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ)**، بعثهم الله عليهم مرتين كما في أول سورة الإسراء، وتوعدهم الله في الثالثة فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٨].

كل هذه عقوبات حصلت على بني إسرائيل بسبب تمردهم وعنادهم مع الأنبياء؛ مع موسى وعيسى عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، ومع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يزال اليهود متمردين، ولا يزال الله جَلَّوَعَلَا يرسل عليهم العقوبات: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧]، فكلما تجمعوا وقويت شوكتهم أرسل الله عليهم من يهلكهم ويدمرهم، وهذا عبر التاريخ معروف.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُسُ فُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنَ الْخَلْقَ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ! بَيْنَمَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى»(١).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ: أَنْبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»(٢).

الشرح:

القبرس: نصارى أهل كتاب، سلَّط الله عليهم المسلمين فانتصروا عليهم، وأخذوا ديارهم، بسبب كفرهم، فاعتبر أبو الدرداء بحالهم، وأنهم ما أصابهم هذا إلا بسبب ذنوبهم، وهو يخاف من الذنوب، فبكى.

وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ»**، يعني: إذا عصوا ونُهوا عن ذلك ولم يمتثلوا، أعذروا من أنفسهم، فأهلكهم الله، ولهذا يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فإذا لم يتبعوا الرسول صار لله عذرٌ في إهلاكهم.

---

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (١٢٨)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٤٣٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٣).

Scanned by CamScanner

وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ صَالِحُونَ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: كَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ؟ قَالَ: «يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ»(١).

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِهِ مَا لَمْ يُبَالِ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا، وَمَا لَمْ يُزَكِّ صُلَحَاؤُهَا فُجَّارَهَا، وَمَا لَمْ يُبَنْ خِيَارَهَا أَشْرَارُهَا، فَإِذَا هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ رَفَعَ اللَّهُ يَدَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ»(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»(٣).

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيُجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ»، قَالُوا وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهَةُ الْمَوْتِ»(٤).

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤)، والطبراني في الكبير (٧٤٧).
(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٨٢١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٤).
(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٩).
(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٩٧).

وَفِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»(١).

الشرح:

المعاصي موجودة ولا تزال، لكن إذا كانت خفيفة وتُنكر إذا ظهرت فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما إذا ظهرت ولم تُنكر فإن العقوبة تعم الجميع: العاصي وغير العاصي؛ العاصي بذنبه، وغير العاصي بسكوته وعدم إنكاره، ثم يُبعثون يوم القيامة على نياتهم، هم يهلكون في الدنيا جميعًا الصالحون والفاسدون، ثم يبعث الله الصالحين يوم القيامة على نياتهم، وليس معناه أنهم إذا هلكوا صاروا كفارًا ومصيرهم إلى النار، بل يصيبهم العقوبة في الدنيا وهم مسلمون، لكن لا يضيع الله إيمانهم وأعمالهم في الآخرة، إنما هذه عقوبة عاجلة.

وقوله: (لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ تَحْتَ يَدِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِهِ) يعني: في حفظه (مَا لَمْ يُبَالِ قُرَّاؤُهَا أُمَرَاءَهَا) ما لم يحصل مداهنة من العلماء مع الأمراء الضالين أو الظالمين، ولم يناصحوهم.

وقوله: (ثُمَّ سُلِّطَ عَلَيْهِمْ جَبَابِرَتُهُمْ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) بسبب ترك إنكار المنكر. فلا بد من إنكار المنكر، والدعوة إلى الله، والمناصحة فيما بين المسلمين؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ

(١) تقدم تخريجه (ص ١٠٠).

Scanned by CamScanner

يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[1].

فترك إنكار المنكر يأتي بعذاب الله ويصيب صاحبه بالفاقة والفقر، وكذلك اقتراف الذنوب يمنع الرزق.

وقوله: (وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ)، يعني: كثرة لا فائدة فيها، (تُنْزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ) يوم أن كان المسلمون يجاهدون في سبيل الله، وينكرون المنكر كانت الهيبة في قلوب الكفار من المسلمين، وفي آخر الزمان ينعكس الأمر، تصير الذلة في قلوب المسلمين، وتُنزع الهيبة من قلوب الكفار، فلا يهابون المسلمين بسبب تخليهم عن دينهم.

وقوله: (فَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ)، هذه عقوبة النميمة، وهذا من عذاب القبر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى هذا المشهد من عذاب القبر، وهو أن النمام يُجعل له أظفار من حديد يخمش بها نفسه. وجاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[2]، فالنميمة سبب لعذاب القبر.

(١) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٨)، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي جَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَيَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ؟ وَعَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ، لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانًا»[1].

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ، وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَفِيهِمْ تَعُودُ»[2].

وَذَكَرَ مِنْ حَدِيثِ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أَذِنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَلَاكِهَا»[3].

الشرح:

يخرج في آخر الزمان قوم يستعملون أمور الدين لأجل الحصول على الدنيا، وهذا التكاس والعياذ بالله، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٤)، وابن المبارك في الزهد (٥٠)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (١٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٩).

Scanned by CamScanner

يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]. هذا من يعمل العبادات وهو لا يريد الأجر والثواب، وإنما يعملها لأجل أن ينال الدنيا.

والصواب: العكس، فيجعل الدنيا مطية للدين، ويستعين بالدنيا على الدين، لا أن يستعين بالدين على الدنيا!.

قوله: (لَا يَبْقَى مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ)، هذه المداهنة في أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتصنع للناس.

وقوله: (عُلَمَاؤُهُمْ شَرُّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ)، وذلك إذا سكت العلماء عن القيام بما أوجب الله عليهم، ولكن ليس معنى هذا أن كل العلماء يفسدون؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[1]، فليس معنى هذا أننا نذم العلماء جملة، ونقول: كلهم ليس فيهم خير.

فنبيهم من لا نعلمه ولا ندري عنه، وهو قائم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولولا وجود بعض العلماء الناصحين الذين لا نعرفهم لخربت الدنيا، فإذا فقد الصالحون نهائيًا خربت الدنيا في آخر الزمان، وإذا لم يبق في الأرض من يقول: الله الله. قامت القيامة، فما دام موجود من الصالحين، ومن العلماء الناصحين، فهذا ضمان لبقاء الأمة الإسلامية، وضمان لبقاء الدنيا.

وقوله: (إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا)، إذا ظهر ولم ينكر، أما إذا كان خفيًا فإنه لا يضر إلا صاحبه، وهو لا يظهر إلا بسبب السكوت وعدم الإنكار.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: «إِذَا أَظْهَرَ النَّاسُ الْعِلْمَ، وَضَيَّعُوا الْعَمَلَ، وَتَحَابُّوا بِالْأَلْسُنِ، وَتَبَاغَضُوا بِالْقُلُوبِ، وَتَقَاطَعُوا بِالْأَرْحَامِ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»[1].

وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشَرَةِ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسُ خِصَالٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا إِلَّا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[2].

الشرح:

قوله: (لَعَنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)، كما في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقوله: (مَا ظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ) من الزنا واللواط، (فِي قَوْمٍ حَتَّى أَعْلَنُوا بِهَا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩).

Scanned by CamScanner

إِلَّا ابْتُلُوا) يعني: إن كانت خفية فإنها لا تضر إلا صاحبها، أما إن أعلنت وصارت ظاهرة ولم تنكر فإن العقوبة تعم المجتمع، **(بِالطَّوَاعِينِ وَالْأَوْجَاعِ)** وأمراضٍ لم تكن في الذين من قبلهم. ومصداق هذا ما هو واقع الآن من كثرة الآفات والأمراض المستعصية، وانتشار ما يسمى بمرض (نقص المناعة) الذي ليس له علاج، من أصيب به يعزل حتى يموت.

وقوله: **(وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ)** هذه جريمة وظلم للناس، قد أهلك الله بها أمة من الأمم وهم قوم شعيب، **(إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُئُونَةِ)** بانحباس الأمطار ونقص البركات، **(وَجَوْرِ السُّلْطَانِ)** وغير ذلك مما هو مشاهد في كثير من الناس اليوم، الذين لا يتورعون عن الغش والخديعة والمكر.

والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥]. فالغش والخديعة والمكر في البيع والشراء، والحيل، والقمار، كل ذلك من بخس الناس أشيائهم وأكل أموالهم بالباطل، فمقابل ذلك يحبس الله عنهم المطر، فتنشف المياه، وتغور الآبار، وتجدب الأرض كما هو مشاهد.

وقوله: **(وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ)**، يعني: انحباس المطر له سببان:

الأول: نقص المكاييل والموازين، وبخس الناس أشيائهم.

والثاني: منع الزكاة، وهذا أيضًا من بخس أشيائهم، فهو مثل تخفيف المكاييل والموازين؛ لأنه منع لحقوق الفقراء والمساكين.

وقوله: **(وَلَا خَفَرَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ)**، إذا عاهد السلطان، وتمت له البيعة، فإذا وفوا فإن الله جَلَّوَعَلَا يوفي لهم أمورهم، وإذا خانوا وغدروا وخفروا العهد بينهم وبين السلطان، فإن الله يسلط عليهم عدوهم؛ لأن العدو إنما يهاب المسلمين إذا اجتمعوا تحت قيادة منهم، ولا يستطيع أن يتسلط عليهم، أما إذا غدروا بالبيعة، وغدروا بالسلطان، وصاروا يحتقرون السلطان، ويزدرونه، ويتكلمون في حقه، تتفرق الكلمة، ويحصل التباغض، وحينئذ يتسلط العدو، وتسنح له الفرصة، هذه ناحية.

والناحية الثانية: إذا خفروا العهد الذي بينهم وبين غيرهم من الدول، فإذا عاهدوا دولة من الكفار، وأعطوهم العهد والأمان، ثم غدروا بهم وصاروا يعتدون عليهم وهم معاهدون لهم، والمعاهد يحترم له حقوق، ويحقن دمه، ويحرم ماله بموجب العهد، فإذا اعتدوا عليه، وخانوا العهد الذي أعطوه، فإن الله جَلَّوَعَلَا ينتقم منهم، ويسلط عليهم عدوهم.

والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»**[1]، الجنة عليه حرام عقوبة له. فالعهد أمره عظيم، سواء كان عهدًا مع السلطان، أو كان عهدًا مع غير المسلمين.

وقوله: **(وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ)** أي: ولاتهم **(بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ)** بل

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

Scanned by CamScanner

حكَّموا غيره من نظم الجاهلية، ومن القوانين الوضعية، ﴿إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾، وهذا واقع ومشاهد، لمَّا عُطِّل في كثير من البلدان الإسلامية الحكم بالكتاب والسنة، وجُعِلت القوانين الوضعية بدلًا عنها؛ أشغلهم الله جَلَّ وَعَلَا بأنفسهم، فجعل بأسهم بينهم، كلٌّ يتربص بالآخر، وانشغلوا عن جهاد الكفار.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا عَمِلَ الْعَامِلُ فِيهِمْ بِالْخَطِيئَةِ جَاءَهُ النَّاهِي تَعْذِيرًا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ جَالَسَهُ وَوَاكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُ عَلَى خَطِيئَةٍ بِالْأَمْسِ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ ضَرَبَ بِقُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ السَّفِيهِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»[1].

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو الصَّنْعَانِيِّ، قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ: إِنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، فَمَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ قَالَ: لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ»[2].

الشرح:

هذا يدل على وجوب إنكار المنكر، وأنه لا يجوز تركه، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٧) من طريق عمرو بن مرة عن سالم، وأخرجه من غير هذا الطريق: أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، وأحمد (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٣)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧١).

Scanned by CamScanner

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

فلا بد من إنكار المنكر، فإذا ترك الناس إنكار المنكر سلّط الله عليهم أنفسهم، وخالف بين قلوبهم، وحقّت عليهم اللعنة، كما حصلت لبني إسرائيل، فإن أحدهم كان يلقى أخاه على المعصية فينهاه في أول يوم، ثم يراه في اليوم الثاني فلا ينكر عليه، ويكون جليسه وأكيله وشريبه، فعند ذلك لعنهم الله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨]، كذلك هذه الأمة إذا فعلت مثل فعل بني إسرائيل لعنهم الله كما لعن بني إسرائيل.

وقد أهلك الله عَزَّوَجَلَّ أربعين ألفًا من بني إسرائيل، وهم صالحون، وأهلك ستين ألفًا؛ لأنهم أهل منكر، فتعجب الناس كيف يهلك الصالحين وهم من خيارهم؟! فبين السبب أنهم لمّا لم ينكروا عليهم صارت العقوبة تعمّهم، ولا ينجو إلا من أنكر المنكر، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

(١) تقدم تخريجه (ص ١٧٠).

وَذَكَرَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، عَنْ أَبِي هِزَّانَ، قَالَ: «بَعَثَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مَلَكَيْنِ إِلَى قَرْيَةٍ، أَنْ دَمِّرَاهَا بِمَنْ فِيهَا، فَوَجَدَا رَجُلًا قَائِمًا يُصَلِّي فِي مَسْجِدٍ، فَقَالَا: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا عَبْدَكَ فُلَانًا يُصَلِّي، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: دَمِّرَاهَا وَدَمِّرَاهُ مَعَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا تَمَعَّرَ وَجْهُهُ فِيَّ قَطُّ»(١).

وَذَكَرَ الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ مِسْعَرٍ: «أَنَّ مَلَكًا أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهَا فُلَانًا الْعَابِدَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ»(٢).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: «لَمَّا أَصَابَ دَاوُدُ الْخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ اغْفِرْ لِي، قَالَ: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَأَلْزَمْتُ عَارَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ وَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، أَنَا أَعْمَلُ الْخَطِيئَةَ وَتُلْزِمُ عَارَهَا غَيْرِي؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّكَ لَمَّا عَمِلْتَ الْخَطِيئَةَ لَمْ يُعَجِّلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ»(٣).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، هُوَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ حَدِّثِينَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ، فَقَالَتْ: «إِذَا اسْتَبَاحُوا الزِّنَا، وَشَرِبُوا الْخَمْرَ، وَضَرَبُوا بِالْمَعَازِفِ، غَارَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سَمَائِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: تَزَلْزَلِي بِهِمْ، فَإِنْ تَابُوا وَنَزَعُوا، وَإِلَّا هَدَمَهَا عَلَيْهِمْ. قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَعَذَابًا لَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلْ مَوْعِظَةً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَكَالًا وَعَذَابًا وَسُخْطًا عَلَى

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٤)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٣)، وابن وضاح في البدع (٢٨٩). وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط (٧/٣٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/٧٤) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رفعه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٠).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٥)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٦)

Scanned by CamScanner

الْكَافِرِينَ». فَقَالَ أَنَسٌ: مَا سَمِعْتُ حَدِيثًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا مِنِّي بِهَذَا الْحَدِيثِ[1].

الشرح:

لا يكفي أن يكون الإنسان صالحًا في نفسه، بل لا بد إذا رأى منكرًا أن ينكره على حسب استطاعته ولو بقلبه، فإذا كان لا ينكر المنكر ولو كان يصلي ويصوم ويتصدق، فإنه تعمه العقوبة، ويوم القيامة يبعثه الله على نيته، لكنه في الدنيا تعمّه العقوبة؛ لأنه لم ينكر ولو بقلبه، فإذا أنكر المنكر نجا، وإذا لم ينكر هلك مع أصحاب المنكر.

وقوله: (لَمْ يُعَجِّلُوا عَلَيْكَ بِالْإِنْكَارِ)، هذا مثل الذي قبله، أنه إذا سُكت عن المنكر ولم ينكر فإن العقوبة تعم الساكت الذي لم يُنكر، ولا تختص بفاعل المعصية، فإذا تاب صاحب المعصية وتاب الله عليه فإن العقوبة لا تُرفع عن الذين لم ينكروا المنكر حتى يتوبوا إلى الله.

قوله: (حَدِّثْنَا عَنِ الزَّلْزَلَةِ) الزلازل: حركة الأرض واضطرابها، فإذا تفشى في الناس المجاهرة بالمعاصي والكفر، حدثت الزلازل، وهي تكثر في آخر الزمان لهذا السبب. وكما هو مشاهد الآن فإن الزلازل تدمر المدن والبلاد، وتهدم المباني، وهذه عقوبات، وليست بكوارث طبيعية كما يسمونها، إنما هي عقوبات من الله عَزَّوَجَلَّ كما يسميها أهل الإيمان.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٧).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا حَدِيثًا مُرْسَلًا: إِنَّ الْأَرْضَ تَزَلْزَلَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «اسْكُنِي، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْنِ لَكِ بَعْدُ»، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ لَيَسْتَعْتِبُكُمْ فَأَعْتِبُوهُ»[1].

ثُمَّ تَزَلْزَلَتْ بِالنَّاسِ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا كَانَتْ هَذِهِ الزَّلْزَلَةُ إِلَّا عَنْ شَيْءٍ أَحْدَثْتُمُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»[2].

وَفِي مَنَاقِبِ عُمَرَ لِابْنِ أَبِي الدُّنْيَا: أَنَّ الْأَرْضَ تَزَلْزَلَتْ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: مَا لَكِ؟ مَا لَكِ؟ أَمَا إِنَّهَا لَوْ كَانَتِ الْقِيَامَةُ حَدَّثَتْ أَخْبَارَهَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَيْسَ فِيهَا ذِرَاعٌ وَلَا شِبْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْطِقُ»[3].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيَّةَ، قَالَتْ: زُلْزِلَتِ الْمَدِينَةُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا هَذَا؟ وَمَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ؟ لَئِنْ عَادَتْ لَا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا»[4].

وَقَالَ كَعْبٌ: «إِنَّمَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ إِذَا عُمِلَ فِيهَا بِالْمَعَاصِي، فَتُرْعِدُ فَرَقًا مِنَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهَا»[5].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/٢٢١)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (١٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٨).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (١٩).
(٤) لم أقف عليه عند أحمد. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/٢٢٢)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/٣٤٢).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢١).

Scanned by CamScanner

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْأَمْصَارِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجْفَ شَيْءٌ يُعَاتِبُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ الْعِبَادَ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْأَمْصَارِ أَنْ يُخْرِجُوا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤ - ١٥]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ آدَمُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ نُوحٌ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]، وَقُولُوا كَمَا قَالَ يُونُسُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]»[1].

الشرح:

هذه الأحاديث والآثار كالتي قبلها في أن الزلازل تحدث بسبب الذنوب والمعاصي، وترك إنكار المنكر، والإحداث والتغيير دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَلَيْسَ فِيهَا ذِرَاعٌ وَلَا شِبْرٌ إِلَّا وَهُوَ يَنْطِقُ) تخبر عما فعل الناس على ظهرها، كما في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، فتشهد على الناس بما عملوا من خير أو شر.

والله جَلَّ وَعَلَا جعل الأرض قرارًا وساكنة؛ حتى يعيش الناس على ظهرها، فإذا أحدثوا زلزلها عليهم تنبيهًا لهم وعقوبة وتحذيرًا.

والآن تحدث الحوادث ولا يعتبر الناس، وإنما يقولون: هذه كوارث

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٢).

طبيعية، ولا يقولون: هذه عقوبة، ونذير من الله للناس ليتوبوا!.

وقد كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا حصل شيء من العقوبات رجعوا إلى الله، وتابوا إلى الله، واستغفروا من ذنوبهم، فيستفيدون من هذه الحوادث بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

أمّا الأشقياء فإنهم ما تزيدهم هذه العقوبات إلا قسوة في القلوب، وإعراضًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، ويفسرونها بأشياء ليست تفسيرًا لها، فيفسرونها بأنها حوادث عادية وكوارث طبيعية، ولا تجد لها أثرًا في قلوبهم ولا خوفًا ولا توبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما تمر عليهم وكأنها لم تمر.

Scanned by CamScanner

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ، ثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً لَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ، وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ؛ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ بَلَاءً، فَلَا يَرْفَعُهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ»(٢).

وَقَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ وَاللَّهِ مَا هِيَ إِلَّا عُقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى النَّاسِ»(٣).

الشرح:

قوله: (إِذَا ضَنَّ النَّاسُ)، يعني: بخلوا (بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ) عن الصدقة وعن فعل الخير، وعن القرض الحسن للمحتاج، وهو أن يُعطى من المال ما يسد به حاجته على أن يرد بدله دون زيادة، هذا هو القرض الحسن، وأغلب

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٨)، وأبو داود (٣٤٦٢).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٤).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٥).

الناس الآن يعدلون عن القرض الحسن إلى الربا، لا يقرضون إلا بربا.

وقوله: (وَتَبَايَعُوا بِالْعِينَةِ)، العينة هي الربا، بمعنى: أن يبيع عليه سلعة بثمن مؤجل ثم يشتريها منه بثمن حال أقل من المؤجل، فيكون باع دراهم بدراهم أكثر منها مؤجلة، وجعل السلعة حيلة، ورجع إليه عين ماله، فسميت العينة لأنه رجع إليه عين ماله.

وقد انتشرت هذه المعاملة كثيرًا بين الناس، فإذا جاء المحتاج إلى التاجر ما يقرضه قرضًا حسنًا، وإنما يقول له: أبيع لك سيارة أو شيئًا آخر بثمن مؤجل أزيد من ثمنه الحال، فإذا اشتراها وتم العقد باعها المشتري للدائن، فيعود إليه عين ماله وزيادة، وهذه المعاملة حرمها الله جَلَّ وَعَلَا.

أما إذا أخذها المشتري وباعها على غيره فلا إشكال في ذلك، فهذه تُسمى مسألة التورق، وقد أجازها كثير من العلماء، فإذا اشترى المحتاج السلعة ليبيعها ويتصرف في ثمنها ويسدد ثمنها إذا حل، هذه تسمى التورق، بشرط أن يبيعها لغيره، أما إذا باعها لمن اشتراها منه فهذه العينة، وهي حيلة إلى الربا.

وقوله: (لَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَدِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ) كانوا يتقارضون، فيجد المحتاج من يقرضه قرضًا حسنًا بدون ربا.

وقوله: (وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، ومن الجرائم التي توجب العقوبة: ترك الجهاد في سبيل الله، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذُرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٨٤) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

Scanned by CamScanner

فإذا كان عند المسلمين قدرة وتركوا الجهاد حلت بهم العقوبة، أما إن تركوا الجهاد لأنهم لا يقدرون ولا يستطيعون، فهم معذورون، لكن إذا تركوه وهم يقدرون عليه خوفًا على حياتهم، (وَأَخَذُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ) يعني: بدلًا عن الجهاد وركوب الخيل في سبيل الله يشتغلون بالزراعة ويأخذون أذناب البقر؛ لأن العادة أن البقر يُستعمل في حرث الزرع، فيشتغلون بالزراعة، ويتركون الجهاد وهم قادرون عليه، فإذا فعلوا ذلك حلَّ وقت نزول العقوبة بهم.

وَنَظَرَ بَعْضُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى مَا يَصْنَعُ بِهِمْ بُخْتُنَصَّرُ، فَقَالَ: بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا سَلَّطْتَ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَعْرِفُكَ وَلَا يَرْحَمُنَا[١].

وَقَالَ بُخْتُنَصَّرُ لِدَانْيَالَ: مَا الَّذِي سَلَّطَنِي عَلَى قَوْمِكَ؟ قَالَ: عِظَمُ خَطِيئَتِكَ، وَظُلْمُ قَوْمِي أَنْفُسَهُمْ[٢].

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَحُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ نِقْمَةً أَمَاتَ الْأَطْفَالَ، وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ النِّسَاءِ، فَتَنْزِلُ النِّقْمَةُ، وَلَيْسَ فِيهِمْ مَرْحُومٌ»[٣].

وَذَكَرَ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا اللَّهُ مَالِكُ الْمُلُوكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدَيَّ، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ رَحْمَةً، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عَلَيْهِ نِقْمَةً، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، وَلَكِنْ تُوبُوا إِلَيَّ أَعْطِفْهُمْ عَلَيْكُمْ»[٤].

وَفِي مَرَاسِيلِ الْحَسَنِ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى حُلَمَائِهِمْ، وَفُقَهَائِهِمْ عِنْدَ سُمَحَائِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَى سُفَهَائِهِمْ، وَفُقَهَائِهِمْ عِنْدَ بُخَلَائِهِمْ»[٥].

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ مُوسَى: «يَا رَبِّ أَنْتَ فِي السَّمَاءِ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٩).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٠).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣١).

Scanned by CamScanner